المحاضرة السادسة: نظريات الاعلام الفلسفية

تمهيد:

يقصد بنظريات الاعلامية الفلسفية أو ما يسمى بفلسفة النظريات الاعلامية خلاصة نتائج الباحثين والدارسين للإعلام بهدف تفسير ظاهرة الاعلام ومحاولة التحكم فيها والتنبؤ بتطابقاتها وأثرها في المجتمع فهي توصيف للنظم الاعلامية في دول العالم، من جهة ثانية أطلق بعض الباحثين على نظريات الاعلام النظريات المعيارية والتي جاءت نتيجة خلاصة نتائج الباحثين والدارسين للاتصال الإنساني بهدف تفسير الظاهرة الاعلامية ومحاولة التحكم فيها والتنبؤ بتطبيقاتها وأثرها في المجتمع.

هذه النظريات تصف وصفا دقيقا لنظام اعلامي تتحدد فيه الهيكلة والعمليات وما ينبغي أن يكون عليه وتنطلق هذه النظريات من الفلسفة والقيم الأيديولوجية السائدة في المجتمع، وهي التي تؤسس لنشأة المؤسسات الاعلامية وتعطيها الشرعية المطلوبة وتنعكس الملامح الخاصة بهذه النظريات في القوانين والسياسات الاعلامية ومواثيق الشرف وأخلاقيات المهنة.

إن نظريات الاعلام تعنى بوضع الفلسفات والأسس والسياسات الاعلامية في أي دولة أو أي مجتمع أو أي مؤسسة اعلامية كانت وخاصة فيما يتعلق بملكية وسائل الاعلام وحق الناس في حرية التعبير وطبيعة النظم السياسية التي تعمل هذه الوسائل للتعبير عنها، ومن هذا المنطلق فإن بعض الباحثين وضعوا مصطلحات أخرى مرادفة لنظريات الاعلام وعلى سبيل المثال: النظم الاعلامية أو المذاهب الاعلامية أو الفلسفات الاعلامية فنجد هناك نظرية اعلامية سلطوية ومذهب اعلامي سلطوي وفلسفة اعلامية سلطوية ...

وبذلك فإن هذه النظم أو النظريات أو الفلسفات الاعلامية ترتبط بالمجتمع من حيث مدى التحكم في الوسيلة الاعلامية سياسيا من فرض كل القيود على الاعلام من حيث مضمون الرسالة إلى القائم بالإعلام أو الاتصال، وإن الهدف من الاطلاع على هذه النظريات هو معرفة نوع النظام السياسي ومن حيث موقفة من الحرية الاعلامية أو الفلسفة الاعلامية ، أي إننا نستطيع إن نحكم من خلالها على أي حكومة إن كانت مع حرية الاعلام أم مناهضة له أم تضع قيودا أمام الاعلام والصحافة، وهنا يطرح السؤال التالي: **ما هي طبيعة العلاقة ما بين نظريات الاعلام وفلسفة الاعلام.**

طبيعة العلاقة ما بين نظريات الاعلام وفلسفة الاعلام:

إن علاقة نظريات الاعلام بفلسفة الاعلام تنطلق في بحث العلاقة الجدلية بين الاعلام وتطبيقاته في المجتمع، أي تحليل التفاعل بين أسس الاعلام كعلم وبين ممارسته الفعلية في الواقع الاجتماعي، ويرى المنظرون الاعلاميون إن نظريات الاعلام هي جزء من فلسفة الاعلام لإن فلسفة الاعلام أعم وأشمل من النظريات وكثيرا مشاعر استخدام نظريات الاعلام باعتبارها فلسفة أو مذاهب الاعلام، ولكن في واقع الأمر إن استخدام تعبير نظريات الاعلام كإن في مجملة انعكاسا للحديث عن أيدولوجيات ومعتقدات اجتماعية واقتصادية أو الحديث عن أصول ومنابع العملية الاعلامية وعناصرها من مرسل ومستقبل ووسيلة ورسالة.

من جهة أخرى فقد ارتبطت نظريات الاعلام بالسياسات الاعلامية في المجتمع من حيث مدى التحكم بالوسيلة من الناحية السياسية وفرض الرقابة عليها وعلى المنتج الاعلامي الذي ينشر أو يذاع أو يبث من خلالها فهل تسيطر الحكومات عليها أم لها مطلق الحرية أم تحددها بعض القوانين.

نشأة نظريات أو فلسفات الاعلام:

قبل أن نتطرق إلى أبرز نظريات ومذاهب الاعلام المتداولة في الوسطين الاعلامي والصحفي الدولي، لابد من التأكيد على إن أول من وضع أسس وأركان فلسفة نظريات الاعلام أو معايير نظريات الاعلام كل من "**سبيرت وبيترسون وشرام**" وذلك في عام 1956 حيث قدموا نموذجا للنظريات الاعلامية اشتمل على:

- النظرية السلطوية أو نظرية السلطة
- نظرية الحرية أو التحررية
- النظرية الشيوعية
- نظرية المسؤولية الاجتماعية

هذا وقد وجهت لهذه النظريات أو هذه النماذج والمعايير انتقادات لاذعة ومع ذلك بقيت هذه النظريات هي من أهم المعايير للحكم على نظريات الاعلام من حيث استخدامها. وخلال عام 1970 وضع عالم الاتصال والاعلام "**لونيشتن**" تصنيفا جديدا اعتمد من خلاله على ملكية الصحافة وفلسفتها وتضمن خمس نظريات:

- النظرية السلطوية: وفي ظلها تعطى للحكومة رخصة لإصدار ومراقبة المضمون ومن ثم تقوم الصحافة بدعم النخبة الحاكمة.
- النظرية السلطوية الاجتماعية: وتمتلك الصحافة فيها الحكومة وأحزابها وتعد الصحافة في اطارها وسيلة لتحقيق الأهداف الفلسفية والاقتصادية للدولة.
- النظرية الليبيرالية: تعمل في غياب رقابة الدولة مع استثناءات قليلة مثل الأعمال الفاضحة مؤكدة على حرية الراي.
- النظرية الليبرالية الاجتماعية: وتعمل بالحد من رقابة الدولة لتقوية قنوات الاتصال والتأكيد على روح النظرية الليبرالية.
- النظرية المركزية الاجتماعية: وتوجد فيها ملكية من قبل الدولة أو ملكية عامة وتؤكد روح الفلسفة الليبرالية من خلال التعدد والتنافس في قنوات محددة.

وخلال مرحلة الثمانينات من القرن الماضي ظهرت تصنيفات اعلامية أخرى قدمها عالم الاتصال والاعلام "**هاكتن**"، فقد أبقى على النظريتين السلطوية والشيوعية الاجتماعية وأضاف نظريتين جديدتين هما النظرية الثورية والنظرية التنموية، وخلال عام 1983 وضع عالم الاتصال والاعلام "**ماكويل**" تصنيفا أبقى على النظريات الأربع التي وضعها **سبيرت** وزملاءه وأضاف إليها النظرية التنموية، كما وحاول كل من "**جولدنج** و **أليوت**" للتغلب على الروتين وعدم المرونة في نظرية الصحافة الأربعة، حيث اقترح كل من **جولدنج و أليوت** إن تكون المقارنة بين النظم الاعلامية على أساس الدور الذي تقوم بة، وقد حدد أربعة ادوار قد تجتمع كلها أو بعضها في إن واحد وهي:

- دور السلطة الرابعة والحارس الأمني لحقوق الشعب
- دورة تسويق سياسات النظام القائم
- دعم ونشر أيديولوجية معينة أو الدفاع عنها
- دور المتفرج والمحايد لما يجري في المجتمع

وبذلك نلاحظ الاهتمام من جانب كل من علماء الاتصال والاعلام بفلسفة النظريات الاعلامية والتي بدأت منذ منتصف الخمسينات إلى أواخر الثمانينات من القرن الماضي، هذا وقد سجل عديد من الباحثين ملاحظات على إسهامات هؤلاء العلماء والباحثين فيما يتعلق بالنظريات الاعلامية.

متى بدأ الحديث عن فلسفة الاعلام؟

الظاهرة الاعلامية أو الفكرة الاعلامية قديمة قدم المجتمعات الإنسانية إلا إن الاعلام كعلم ومنهج دخل حقل الدراسات العلمية والأكاديمية مع نهاية الحرب العالمية الثانية ولذلك ليس غريبا أن يتأخر الاهتمام بدراسة الاعلام ككل والنظريات والنظم الاعلامية وذلك بهدف اكتشاف المعايير التي يمكن عن طريقها التفرقة ما بين النظم وكان من الطبيعي أن تتم عملية ادراك العلاقة ما بين أنظمة الاعلام وفلسفة الحكم حيث سيتبين لنا إن الأنظمة الاعلامية تعكس فلسفة النظم السياسية بل هي مرايا للسياسة ومن هنا فإن الاعلام على ضوء هذا التوضيح هو امتداد طبيعي للنظم السياسية في أي مجتمع أو بتعبير آخر هو الوجه الآخر لذلك النظام ذلك أن النظامين السياسي والاعلامي هما وجها العملة الظاهرة للنظام الاجتماعي والاقتصادي والإنساني في أي مجتمع.

ومن الملفت للانتباه إن الأبحاث الاعلامية لم تقف على أكتاف علماء الاعلام فحسب، بل ساهم فيها علماء الرياضيات وعلماء الاجتماع والنفس والسياسة والاقتصاد والفلسفة واللغة... ففي منتصف القرن الماضي وبالتحديد في عام 1956 تم صياغة النظريات الاعلامية كما أشرنا سابقا على يد **سبيرت وشرام** والتي حددت علاقة الاعلام بالسلطة حيث طرحت هذه النظريات والأفكار في أكثر من مؤتمر علمي ولكنها لم ترى النور إلا في عام 1963 حيث صدر كتاب من جامعة "**الينوي**" يحمل عنوان "**نظريات الصحافة الأربعة**" ومنذ ذلك التاريخ اصبح للإعلام نظريات قائمة بذاتها، بل إن العلاقة ما بين علم الاعلام والعلوم الأخرى ازدادت صلابة وتداخلا وتفاعلا فقد خرج من معطف علم الاعلام علوم أخرى كعلم النفس الاعلامي وعلم الاجتماع، كما وخرجت أنماط اعلامية جديدة أثرت في مسيرة البحث الاعلامي العلمي معا، كما ودخلت دراسات القانون في علوم الاعلام والدعاية لا من ناحية قوانين الاعلام والصحافة والنشر فهذه دراسات قديمة ولكن الجديد في الموضوع من ناحية علاقة الاعلام بالدعاية على ضوء القانون الدولي والسياسات العالمية من وإلى جانب النظريات التي تتناول الاعلام والدعاية فهنالك تجارب لابد من الوقوف عندها ودراستها لإن هذه التجارب هي التي أدت إلى ظهور النظريات الاعلامية من ناحية كما أنها تثبت أو تنفي النظرية من ناحية أخرى، وأن طرق ابواب هذه النظريات ومعرفة أصولها وأسسها وقواعدها هو بداية تأمين علم الاعلام والدعاية الذي نعتبره الأساس الأول للعمل الاعلامي والدعائي.

من خلال ما سبق ذكره فإن ارتباط الاعلام بالنظم السياسية أطر محتوى وسائل الاعلام أي أن القيم الوطنية التي تعتنقها كل دولة لها علاقة وثيقة بالإعلام وبمحتوى وسائل الاعلام، لكن القيم الوطنية ليست واحدة فهناك اختلافات كثيرة من هذا الفكر والعقيدة السياسية.

إن هذا الكلام يقودنا إلى علاقة الاعلام بالسلطة حيث يقول الباحث **عبد اللطيف حمزة** "إن وسائل الاعلام المعروفة ترتبط ارتباطا وثيقا بأنظمة الحكم على اختلافها وتباينها فهناك نظم ملكية وجمهورية بأشكال مختلفة ولهذه النظم جميعا مذاهب وفلسفات كالرأسمالية وهنالك الاشتراكية، والاعلام هو الوسيلة الوحيدة للتفاهم الذي لابد منة لهذين الجانبين..." بل ويضيف **الدكتور اللطيف حمزة** في موقع آخر بالقول:" إن الحكام يتفاوتون تفاوتا بعيد المدى في نوع التفاهم الذي يربطهم بالشعوب التي يحكمونها فمنهم من لا يسمح بهذا التفاهم على أي صورة من الصور كما في النظم الاستبدادية والديكتاتورية، ومنهم من يسمح دائما في النظم الديمقراطية ومنهم من يضع له بعض القيود الخاصة كما في النظم الاشتراكية، ومنهم من يحرم الجماهير حرمانا تاما من هذا التفاهم اعتمادا منهم على أن الحكومة لا عمل لها إلا اسعاد الشعب بجميع أفراده على السواء كما في النظام الشيوعي وهكذا..."

خلاصة:

بعد إن استعرضنا فلسفة الاعلام عبر التاريخ ونشأة النظريات الاعلامية سنقوم خلال المحاضرات القادمة بالتفصيل كل نظرية على حدة ما لها وما عليها، حتى نتعرف على الفكر الاعلامي ودور النظريات الاعلامية في رفع مستوى الفكر الاعلامي والبحث الاعلامي معا.